مقدمـــة

قليلة هى ومضات الحكمة التى تومض فى سماء السياسة الأمريكية بين الحين والآخر؛ لأن الإعلام الأمريكي يحرص على ترسيخ القيم المادية والمبادئ البراجماتية النفعية التى يعتنقها المجمع العسكرى الصناعى، الذى ورث السلطة فى الولايات المتحدة منذ إنشائها رسميًا في أعقاب الحرب الأهلية، والذي كان دائمًا بالمرصاد لمثل هذه الومضات لكى يعتم عليها بمجرد ظهورها، وحتى لا تتألق وتحرك العقول المثقفة والمفكرة التى يمكن أن تنير عقول المواطنين البسطاء، فيكتشفوا عوامل التضليل والغيبوبة التى تتفنن فى صنعها وابتكارها أجهزة الإعلام. ولذلك كانت المساحة الإعلامية التى حصل عليها حكماء السياسة الأمريكية تكاد تكون معدومة، ولكن إذا استطاعت كتابات وأفكار هؤلاء الحكماء أن تفرض عليها نفسها على هذه الساحة، ربما فى غفلة من الزمان، فإن الساسة أو السادة المسيطرين على أبواق الإعلام سرعان ما يدفعون برجالهم وعملائهم من أصحاب الأقلام والمنابر والبرامج؛ لكى يشنوا أعتى الهجمات على ماجاء فى كتابات هؤلاء الحكماء لتشويهها وتسخيفها بكل الوسائل والأساليب الممكنة، بحيث تتلاشى أفكارهم وتوجهاتهم كالدخان فى الهواء، ويتلاشى بالتالى أثرها فى المواطنين بمختلف مستوياتهم.

والدليل على ذلك أن الرائد الذى أرسى قواعد الحكمة السياسية فى الولايات المتحدة بين تلاميذه ومريديه يكاد يكون مجهولاً عند الجميع، باستثناء صفوة مختارة من المفكرين أو المثقفين. ولذلك سيندهش القراء عندما يجدون اسمه على رأس القائمة من حكماء السياسة الذين يضمهم هذا الكتاب بين صفحاته، وهو رينولد نيبور الذى ولد فى عام ١٨٩٢ ورحل فى عام ١٩٧١، وخاصة عندما يكتشفون أن تلاميذه ومريديه الذى أتوا بعده فى القائمة، استطاعوا أن يبرزوا توجهاتم الحكيمة على الساحة السياسية، وإن لم يحدثوا الآثار التى كانوا ينشدونها، مثل وليم فولبرايت، وجورج كينان، وولتر ليبمان، وبول كينيدى. فكلهم اعترفوا بأثره العميق عندما ارتقى بالفلسفة السياسية إلى درجة الحكمة، لدرجة أن جورج كينان دعاه «أبانا جميعًا»، كناية عن الرؤى والتقاليد الفكرية، التى رسخها وسار على هديها كينان وأضرابه. فإذا كان نيبور هو الأب، فإن دور الأبناء لم يقتصر على مجال الفلسفة السياسية، بل انطلق منه ليمتد إلى مجالات أخرى، نظرًا لأن القوانين والتقاليد والنظريات التي وضعها نيبور، كانت صالحة للتطبيق والاستلهام فى هذه المجالات المتعددة والمختلفة، مثلها فى ذلك مثل الفلسفات الإنسانية الشاملة التى تتجاوز حدود الزمان والمكان. فمن القادة السياسيين، تأثر به: هيوبرت هـ. همفرى، وإلينور روزفلت، وأدلاى ستيفنسون، ورالف بانش، ورادا كريشنان (الهندى)؛ ومن الشخصيات الأدبية: ت. س. إليوت،

و و. هـ. أودين، والآن باتسون، ومن رجال التربية والتعليم: تشارلز كول، وس. هـ. دود، ووليم هوكنج، وكلارك كير، وروبرت هيشنر؛ ومن رجال الأعمال: الناشر الشهير هنري ر. لوس، وبول هوفمان، وإروين ميلر؛ ومن قادة العمال: ولتر روبتر، وديفيد روبنسكي، وجوزيف روه، أما فى مجال السياسة الخارجية فقد سرى رحيق حكمة نيبور فى مواقف وكتابات وأفكار المؤرخ البريطانى أرنولد توينبي، والمفكر السياسى الراسخ آرثر شليزنجر (الابن) الذى تتبع أثر نيبور فى توجهات المفكرين الذين احتواهم هذا الكتاب: وليم فولبرايت، وجورج كينان، وولتر ليبمان، وبول كينيدى وإن كان هذا الأخير قد انحرف عن مساره بعد ذلك.

لكن تأثير نيبور ظل محصورًا فى النخبة الرفيعة بين المفكرين والمثقفين والساسة، ولم يمتد ليسرى فى العقل الجمعى الأمريكى، لأن أجهزة الإعلام والسياسة كانت بالمرصاد لأى احتمال لتسربه إلى قطاعات الجماهير، التى يمكن أن تتحول إلى عقبة راسخة فى المسار الذى اعتادت السياسة العامة السائدة أن تشقه باستماتة فى مجال غسل المخ الجمعي؛ حتى لا يظن فى يوم من الأيام أن فى إمكانه الانحراف عن الآليات الرأسمالية، ولو قيد أنملة. ومع ذلك سجل تاريخ الفكر الأمريكى أنه من الصعب أن تجد مفكرًا أمريكيًّا على تعددهم وما بينهم من فروق، لم يكن من أتباعه أو ممن يختلفون معه، لكنهم يحملون له كل التقدير والإعزاز، أو يعترفون له بالقدرة على اختيار الشباب من كافة الاتجاهات فى صحفه التى كان يصدرها. وما من كاتب من الكتاب الذين جاءوا بعده من الليبراليين أو المحافظين أو المتطرفين أو السود أو البيض على شتى عناصرهم، أو محللى معطيات الحرب الباردة على اختلافهم، إلا وكانوا يفخرون بالتأثير الفكرى الذى مارسه عليهم بمنتهى الموضوعية والديمقراطية. كان فى نظرهم منارة للحكمة السياسية والإنسانية.

ويتجلى تأثير نيبور على فولبرايت عندما صرح بقوله فى مقدمة كتابه الذى صدر فى عام ١٩٨٩ بعنوان «ثمن الإمبراطورية»: إنه لا يجد صفة يمكن أن تنطبق عليه مثل صفة «المنشق». فهى تنطبق على كل إنجازاته الفكرية وخطواته العملية فى سعيه الحثيث لتطبيقها. كان يملك من الحكمة والشجاعة والجرأة والصدق مع نفسه والمصداقية تجاه الآخرين، ما جعله امتدادًا حيًّا وعمليًّا لفكر نيبور، رغم أنه كان فى قلب دوامات التيار السياسي والاقتصادى والاجتماعى العام، سواء بصفة شخصية مستقلة أو برغم المواقع الرسمية التى احتلها بجدارة، والتى لم تزين له فى يوم من الأيام أن يتخلى عن مبادئه وقيمه ومثله الإنسانية الرفيعة والحريصة على السلام والتعاون والتقدم المادى والروحى والثقافى والحضارى لكل البشر، وهى المبادئ التى

أفنى نيبور عمره فى المناداة بها وترسيخها بقدر الإمكان فى المجال العملى، والتى جعلت فولبرايت فذًا ومتفردًا وشامخًا وراسخًا من طراز رفيع فى مواجهة أقرانه الذين انهمكوا فى ممارسة الألاعيب السياسية، واللعب على الحبال، والصراع من أجل المصالح الشخصية، والتآمر فى الدهاليز المعتمة بهدف الاستمرار على القمة أطول مدة ممكنة.

أما جورج كينان الذى اعتبر نيبور أبًا لكل أقرانه المؤمنين بمبادئه، فقد استلهم العنصر الأخلاقى فى فلسفته، ووسَّع من رقعته، وعمق من جذوره، لدرجة القول بأن السياسة أو الدبلوماسية الأمريكية لم تعرف مفكرًا أو منظرًا أو كاتبًا أو محاضرًا أو أستاذًا أكاديميًّا أو ممارسًا ارتبط اسمه وعمله بالقيم الأخلاقية، التى تصل فى أحيان غير قليلة إلى درجة المثالية، التى من النادر اقتفاء أى أثر لها فى مجال الممارسات السياسية الزاخرة بالأكاذيب والمؤامرات والدسائس، لكنها عرفتها فى شخص جورج كينان، لدرجة أنه اعتاد أن يسأل زملاءه من المسئولين فى وزارة الخارجية: «هل أقول غير ما أفعل». ولم يتردد لحظة فى تأكيد حرصه على الدور الحيوى والضرورى الذى تلعبه الأخلاقيات فى حياة الشعوب والدول . فقد كان فى أعماقه مفكرًا أخلاقيًّا من طراز رفيع وعنيد فى مواجهة المتلاعبين بالقيم الأخلاقية. ولم يتوقف طيلة حياته عن تحليله ونقده لجوانب فى الحياة السياسية الأمريكية، وإدراكه لعناصر الضعف الكامن فيها ثم شعوره بالعجز إزاءها، وعدم إمكان تصحيحها أو اجتذابه للرأى العام كى يساعده فى ذلك، مما أصابه بأحاسيس الإحباط والضيق والتشاؤم.

أما ولتر ليبمان فكان التيار المتدفق لفلسفة نيبور فى الصحافة والسياسة والاجتماع والحضارة والأخلاق والدبلوماسية، وكانت مقالاته ودراساته وكتبه وأحاديثه بمثابة الدفة، التى حاولت توجيه الأفكار والرؤى إلى آفاق مضيئة بقدر الإمكان وسط تيارات صاخبة ومتلاطمة فى خضم الحياة الأمريكية. وكرائد ينشد المرشد ويهتدى بنور العقل، ظل ليبمان يضىء الطريق ويكشف عن حقيقة المشكلات، التى يضطرب بها العصر دون إدعاء بأنه سيأتى بالحلول التى لم تخطر ببال أحد. وفى عموده المتميز الذى يكتبه فى صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون»، لم يدع أبدًا أنه قادر على تقديم إجابات لا تحتمل أى خطأ، أو قصور، وكانت تحليلاته وتعليقاته المتتابعة عن مجريات الأمور السياسة الراهنة، توحى بأن السياسة القائمة مبهمة وخاطئة، بل وأقرب إلى مضاعفة أسباب العلة، منها إلى شفاء المرض الذى توظف من أجله.

أما بول كينيدى صاحب الكتاب الشهير الذى أثار ضجة عندما صدر عام ١٩٨٧ وهو «صعود وسقوط القوى العظمى: ١٥٠٠ – ٢٠٠٠»، فقد وضعه هذا

الكتاب فى مقدمة الدارسين الذين تصدوا بالبحث العلمى للإجابة عن سؤال مصيرى عن استمرار القوة الأمريكية أو اضمحلالها فى العقود التالية، وذلك بالمعنى انتاريخى لمفهوم الاضمحلال الذى ثبت أنه المصير الحتمى لأى إمبراطورية. وقد تمثلت نظريته الرئيسية فى أنه إذا زادت الالتزامات الاستراتيجية للدولة العظمى على إمكاناتها الاقتصادية، فإنه تسقط من خلال الاضمحلال التدريجى لقوتها. وقد دلل كينيدى على صحة مقولته بدراسته التحليلية لإمبراطوريات متعددة، سبق لها فى عصور متتابعة أو متزامنة أن صعدت صعودًا بارزًا، ومارست سطوتها على العالم، ثم ما لبثت أن أصابتها أمراض التفكك والتآكل ثم الانهيار.

لكن كينيدى غير توجهه تمامًا بعد ذلك؛ حتى يتجنب الضربات والهجمات التى تعرض لها من أجهزة الإعلام بسبب جرأته فى كتاب «صعود وسقوط القوى العظمى»، وقرر أن يركب الموجة السائدة بنظرية أخرى، أطلق عليها مصطلح «الدول المحورية» فى مقال فى مجلة «فورين أفيرز» عدد يناير/ فبراير ١٩٩٦، قامت على نظرة براجماتية نفعية بعيدة عن النظرية الأكاديمية الموضوعية الحضارية، التى وردت فى كتابه الموسوعى. فى هذا المقال وضع كينيدى خريطة للساسة الأمريكيين تعرفهم من أين تؤكل الكتف، عن طريق استغلال ثغرات الضعف فى الدول التى وصفها بالمحورية؛ فالغاية فى النهاية تبرر الوسيلة، وهكذا خرج بول كينيدى من كوكبة حكماء السياسة الأمريكية.

المهندسين ١ مارس ٢٠١٠ **د. نبيل راغب**